



كان كل انسان يقيل في ظهيرة يوم من ايام يوليو الحارة في احدى مدن الريف الـصـفـري او قراه الكـبـري ، ما عدا طبيبا من اطباء القرية الثلاثة : طبيب المستشفى المركزي ، وطبيب الصحة ، واندكتور « ع » طبيب القرية الحر الذي هو موضوع هذه القصة ..

كان جاسا على مقعد امام باب مغلق ، يضع ساقا على ساق ، ويشبك اصابع يديه على احدى ساقيه ، وينحني راسه على صدره انحناء من آده حمل ثقيل خارت له قواه .. وكانت عبرة مسفوحة قد تركت اثارها على خديه ، ووقفت هلى شعرة من شعر شاربه لابيض تنتظر عونا من اختها الواليدة لتسقط ..

وكان انين خافت منقطع يصل اليه من وراء الباب بين الحين والحين ، فيمزق نياط قلبه ، ويهزه حتى القرار ..

على انه لم يكن يستقر في جلسته ، فقد كان يقوم ويقعد ، ويتمشى ، ثم يعود الى الباب فينصت ، ثم يذهب الى صندوق صغير مغلق بالحائط ، فيأخذ منه قارورة كتب على وشاحها الاحمر « عشرون نقطة في قليل من الماء - سم - لا تتجاوز المقدار » فيتأملها قليلا ، ثم ينحى عنها وجهه الذي توتر لاسى فيه ، ثم يضعها حيث كانت ويحكم انقل عليها كأنما يحبس جنسا

يروعه في قمقم ، ويعود الى دورته القلقة بين القعود ، والقيام ،
والتجوال في الغرفة بلا هدف مقصود ..

وكانت ساعة دقاقة ملصقة بالجدار تعلن في هذه اللحظة
عن الساعة الثانية بعد الظهر ، خيل له كأن الزمن يقول
له في دفتيها قد بقي من عمرها - عمر ابنته المريضة - ساعتان ..
او يومان .. او اسبوعان .. انهما شيئان والسلام ، لا يعود
له بعدهما ابنة ، ولا يصبح له اى امل ولا هدف في الحياة ..

* * *

كان هذا الطبيب اقدم زملائه في القرية واكبرهم سنا ، وكان
يتحتم بشهرة طيبة فيها وفيما حولها من القرى ، لم يكتسبها
بالعلم والمعرفة ، وإنما اكتسبها بطول المران ، وفطرة الانسانية
العليا التي كانت تصبغ كل تصرفاته نحو مرضاه ، وقلبه
الطيب وروحه السمحة ، وانفذه لمواسى ، وفهمه الصحيح لعقلية
الفلاح ..

وكانت هذه الشهرة تقابل من زميله في القرية بكثير من
الحسد والغيرة لم يحاولا كتمانها ، فقد كان طبيب الصحة دائم
التجنى عليه ، دائم التربص به ، دائم التتبع لما يقع منه وقد
يقع كل طبيب سواد من زلات وهفوات

ولم يكن طبيب المستشفى من هذه الناحية اكرم من زميله ،
ولا اعف منه لسانا ، فقد كان هو الاخر لا يفتأ ينمى عليه جهله
ويتفكه عليه في المجاس بانه يداوى مرضاه بالرقى والتمائم ، وعندما
كان مريض من مرضاه يطالبه بمستشار كان ينصحه باستقدام
طبيب لصحة ، فاذا اباه المريض واصر على استدعاء الدكتور «ع»
عيس وزام ومطد شفتيه ، ودعا على كره وما ان يخرج حتى
يعمد الى اظهاره امام المريض واهله تصريحا وتلميحا بمظهر
الاحمق الجاهل بمعارف العلم الحديث .. على ان الطبيب لم
يكن يبالي بهذه الحماقات ، بل يلاقيها بأكثر من الحلم ، ورحابة
الصدر ولا يتسام الذي لا يفارق شفتيه ، وكان يعطها اذا سئل

عنها بانها فورة من فورات الشباب لا تلبث ان تستقر وانه هو نفسه اتى عليه حين في شبابه قبل ان يصادمه تيه لطلب بحقائقه المرة كان يظن نفسه فيه خليفة لابوقراط ، بل كان يذهب في التسامح والغفران الى اكثر من هذا في بعض الاحيان فيعرف بان زميليه اكثر منه تبخرا في القراءة والاطلاع ، ولكنها ارزاق والارزاق بيد الله ، فكانت هذه النعمة تصادف هوى في نفس الفاذح ، فتزيد حبا له ، وكبار التواضع ، وايماننا على ايمانه انقديم بفضل تجربة المجرب على طب الطبيب !!

* * *

وكانت السفينة قمينة ان تظل مقلعة بالدكتور « ع » . تحت هذه الريح الرخاء ، لولا صخرة عاتية صادفتها في الطريق فقد كانت له ابنة ، يتيمة من الام ، ليس له في الدنيا سواها ، وكانت سعادتها هي الهدف الاول والاخير لاماله في الحياة

ومع انها كانت في باكورة شبابها ، فقد كان حفلها من الجمال بحيث لا يجذب اليها بسهولة نظار الراغبين في الزواج ، ومن اجل هذا عمل ابوها على ان يسيضها عن ثروتها الضئيلة من الفتنة ، ثروة مضاعفة من العلم والمال . وكان له ما اراد .

وفي احدى اجازاتها الصيفية من المعهد العالي الذي كانت تتلقى فيه علومها بانقضاء ساعة اصيبت بحمى خفيفة شخصتها ابوها انفلونزا ، وظل يعالجها على هذا الاساس بضعة ايام ، ولكنها لم تبرأ ، وظلت الحمى تختلف عليها لا تعلى ولا تهبط واخذ القلق يتسرب الى قلب الطبيب ، ناهيك بقلب الاب الحنون !

ولجأ الاب الى زميليه يستشيرهما ، فادركتها على شيخوخته المهمومة بارقة عطف ، وراحا يبذلان له ولها أقصى ما يستطيعان من عناية . ولكن هذه البارقة كانت مشوبة باثارة من الاتجار الرخيص باشجان لزميل المعجوز !

فقد كان كلاهما لا يأو جهدا في الإيحاء الى اهل القرية جميعا ، مرضى واصحاء ، بانهما يعالجان ابنة زميلهما الحر بعد أن فشل ابوها في علاجها من مرضها الخطير !

ولم يكن مرضها في نظرهما خطيرا ، فقد كان كلاهما مؤمنا بانها ايام قلائل ثم تبلى من مرضها ولكنها شاءا أن يضيفا على ما سميها بينهما وبين ابينها « وعكة من تعفن بالامعاء لا تلبث أن تزول » خطورة تعلى من شأنهما في المستقبل ، وتذيب الأرض الصلبة تحت اقدام الطبيب العجوز ، ويكفيه ما جمع ، وما حاجة مثله في هذه الشيخوخة الفانية الى المال ؟؟

ولم يكن كل منهما ينسى كلما دخل عليه مريض ان ينادى بخادمه فيطالب منه تعقيم المحقن الذي سيحقن به ابنة الدكتور « ع » . او يسأله اذا كانت الحيدلية قد ارسلت الدواء الذي وصفه لابنة الدكتور « ع » . او يرسله برسالة الى الدكتور « ع » . يسأله فيها عن حرارة ابنته وكيف هي الان ؟! وكان الدكتور « ع » . يقابل هذا العطف بالشكران والثناء ، ولم يخطر له على بال قط انه عطف ظنين .

وكانت هذه الدعاية خليقة ان تزلزل الأرض تحت قدمي الدكتور « ع » . فالفلاح قد يفتخر للطبيب كل خطأ ، الا ان يعتل هو ، او يعتل احد من ذويه ! ولكن هذه الدعاية تداعت امام ماضيه الطويل ، وسمعتة الراسخة الاصول ، وان كانت تروك وراءها حكايات تتداولها الالسننة عن اخطاء ارتكبتها الدكتور « ع » . اخطاء كانت تمر في الماضي على انها اصابات للاقدار . . .

على أن الايام تضي وابنة الدكتور « ع » . ما زالت عليلة وما زالت علتها تهزأ بالعمقير ، وتزداد سوءا على سوء . واخذ الطبيب الموظفان يتخلصان من هذه التبعة . ويزعمان ان اباهما لا يسمع لمرضيهما وانه يعالجها بطيبه القتيق ، وراحا بضربان أمثلة زائفة على هذا المعيان فقد طلبا منه أن

يسلق لها القرع فشواه ! وقد ثبت لهما من شهادة الخدم أن دواء وصفاه لها بعد الطعام ، سقاها اياه ذات مرة قبل الطعام ، وانهما بناء على هذه الاسباب ومثلها ينفضان أيديهما من علاجها ويتركانها لرحمة المقادير !



أيس الطيب من علاج ابنته في القرية ، فذهب بها الى القاهرة حيث شيوخ الطب واعلامه ، وله في اكثرهم أصدقاء . وفحصوا المريضة فحسا دقيقا من كل الوجوه ، وقرروا في النهاية أن مرضها عضال ، وان ذبالة حياتها أوهى من ان تؤججها سوى معجزة ، ثم واسروا اباه ، ونصحوا له ان يوفر لها الراحة في أيامها القلائل الباقية ، ووصفوا لها عشرين قطرة من زجاجة عليها وشاح أحمر ، تأخذها في قليل من المساء ، لاتتعداها ، ذودا لآلام لامبرر لها .

وأشفق الطيب على ابنته من هول النبأ فكتمه عنها ، حتى لا يجمع عليها نكبة الالم وفجيرة اليأس من الشفاء ، وراح يضاحكها في الطريق ، ويقول لها ان اطباء المدين أسخى على مرضاهم منا نحن أطباء الريف ، فقد أذنوا لها أن تأكل الفاكهة جميعا ، وبعض اللحوم اذا شاءت ، وانها تستطيع منذ اليوم ان تقذف في وجه الطاهية يطبق القرع المسلووق وأخذ والحزن يعجز فؤاده يحدثها عن الرحلة البهيجة التي أعدها لها يوم نقاهتها في جبال لبنان .

وعندما عاد الى القرية كتم النبأ عن كل مخلوق حتى عن زميليه ، كى لا يتسرب الى سمعها من أى طريق ، وراح يجتر أحزانه وحده ، ويقتات على أشجانه دون حاجة الى زاد ، وآلى على نفسه ليقضين بجوار فراشها ماتبقى لها من العمر قصر أو طال .

وانكمشت حياته التي كانت ممتلئة بالتجوال والنشاط ، واهمل ، والامل الى ساعات حزينة يقضيها معها ، يمطرها

بسمات وقلبه يقطر دماء ، ويملاً مسميها بكواذب المنى ونفسه
تساقط قنوطا وحسرات

فاذا استسلمت للرقاد ساعة تحت تأثير قطرات السم ، مشى
الى الباب يسترق خطاه وجلس من خلفه كالكلب الوفي ، يهوم
تهويما كحسبو الطائر الفزع . ثم توقظه أحلامه المزعجة أشد

ماكان قلنا ، وأفطع ماكان عذابا ،
وأعق ماكان لحياته وكل ما كان
يحرص عليه من ذخائر مسده
الحياة !

وأخذت شبخوخته تزحف
بلا رحمة على البقية الباقية من



وفي هدأة من ليلته الثالثة المسهودة صب نصف ما في زجاجة السم
في كأس الدواء

قواه ، ودفنق كيانه يتفوض بسرعة هائلة تحت وطأة السهر والضنا وانقراض آماله كلها بهذا البطء الشنيع . ومع ذلك فقد هان عليه كل شيء ثمنا لعلالة من النوم المريح تنالها ابنته الداوية وسط هذا البلقع المجذب الا من قتاد اليأس والآلام . .

* * *

على أن مرضاه لم يتركوه . وظلوا يقطعون عليه هذه الوحشة المؤلمة بقبس من النسيان . وبالرغم من أنه كان يفودهم عن نفسه برفق ويحيلهم قدر ما يستطيع على زميليه فقد ظلت عقرب الفيرة تلوث قلبيهما بسمهما الزعاف . .

غاضبهما إن تذهب كل دعايتهما ضده هباء . . .
وغاضبهما إن يتلقيا منه المرضى صدقات !

وغاضبهما أكثر وأكثر انصرافه عنهما في علاج ابنته بعد استشارة كبار الاطباء ، وانتفاء التهمة ، وتحطيمه دون قصد لا قوى سلاح كانا يحاربانه به ، وهو الصياح على مسمع من مرضاهما بدواء ابنة « الدكتور ع . » والمحقن الذي تحقق به ابنة الدكتور ع . و «القرع المسلوف » فأخذا يزعمان أنه يقتل ابنته بالجهل والاهمال ، وكلمة تواترت أنباء الخدم عن سوء حالتها ، زعما ان المريضة منذ تركا رعايتها تسير بخطوات حثيثة الى مشواها الاخير . !

وكانت هذه الاقاويل تصل الى الدكتور ع . فلا يعتب ولا يغضب ولا يشور . . وانما يتتسم بتسامية كالبكاء ويستغفر لهما الله . .

وطالت هذه التعاسة المزدوجة عليه ، ومرت به الايام كأنها أعوام ، وأخذ فصل السم الذي كان يطامن من آلام المريضة يتضاءل كان جسمها قد تعودده ، وبنات أنينها الخافت أعلى وآلم من ان يدفعه عنه التهويم أو النسيان .

وباتت كواذب المنى لا تحرك في قلب الصهبية المحتضرة الا وتر الاشفاق على كلب أبيها المقصود .

قضى الدكتور ع . ثلاث ليال مسهدا على باب ابنته ، راحت فيها تأملاته وهو يمسك بزجاجة السم - وما زال فيها نصفها - تزداد وتطول ..

ولم يعد ينحيا عنه كلما نظر اليها تنحية الخائف المدعور .. كانت فكرة قد طفت في خياله وهو يسمع من ساعة الحائط دقيقتها المحزنتين . ويتوهم فيهما نذير الزمن القاسى بقرب اقضاء !

فكرة هائلة ترعرعت في خياله مع السهد ، والائين .. ان يريح ابنته من هذا العذاب !

ماذا لو اعطاها من زجاجة لسم اربعين او خمسين قطرة دفعة واحدة ، واجاب بالنيابة عنها دعاء القبر الذى اشتد به الحنين الى نزيله المرموق .. ثم يكن بعد ذلك مايكون ؟

ظلت هذه الفكرة تراوده ، وتحتمكم في ضميره الى حنان الاب والى عقل الطبيب ، ولكن ايمانه بالله كان يدودها عنه ، وينتصر على منطق العقل والحنان

لكن حنان الاب وعقل الطبيب آزرهما فى النهاية ذلك الاينى العالى المحزن الموصول : فتقهر ايمانه بالله ، وخسر المعركة الاخيرة بعد طول الفوز وتوالى الانتصار

وفى هدهد من ليلته الثالثة المسهدة صب نصف ما فى زجاجة السم فى كأس الدواء ثم ذهب الى سرير ابنته بخطى وثيدة ، ثبتة ، فزاد على الكأس القطرات لعشرين المعتادة ، ثم قدمها لابنته ، وهى تنظر اليه نظرة عتب على هذه المهزلة التى تمثل على غير رضا لامن الممثل ولا من الشهود .. ولكنها شربت حتى لاتسىء ليه . !

واخذ الاب الشيخ المحطم يدهدها كما كان يفعل وهى طفلة ، ويحدثها عن لبنان واحراش الصنوبر ، و « صوفر » التى كانت تعشقها ، وتفضلها على كل فمم لبنان

وثقلت اجفانها ، واسترخت عضلات وجهها التى وترها الالم ، ولانت شفاتها حتى لكانهما عازلان شبح ابتسامته

وانهلت دموع الشيخ فجأة على وجنتيه الذابلتين ، كأنما تساقط من ميزاب ، ووقع بعضها على جبينها وهو يقبلها القبلة التي كان وثقا انها القبلة لآخرة ..
وذهب يسترق الخطى نحو الباب كما كان يفعل ، ولكنه بدا له فداد وأدار السرير نحو القبلة ، ثم اغلق عليها الباب ..
ولم يعد يسمع الاين ..
وظلت الساعة وهو جاثم بالباب تقول له في دقائقها الحزينة : ان المتعب قد استراح !

* * *

ولم ينم الاب قط منذ ليال ما نام في هذه الليلة ، فقد غلبه ضعف الجسد الواهن ، وراحة اليأس المطلق ، فتمدد على الباب وراح في سبات لا تقطعه رؤى ولا احلام ..
وعندما افاق في الصباح انتفض من مرقداه ، وعادت اليه فكري اللحظة الرهيبة فاندفع الى سرير ابنته كالمجنون ..
فلم يجد على وجهها صفرة الموتى
والقى نفاسها تتردد من تحت الغطاء هادئة منتظمة . !
وكانت في غيبوبة لم تفق منها الا في صباح اليوم التالي ..
وعندما استيقظت كانت كالخارجة من حمام تركت فيه اكثر ما كان يلوث روحها من أضرار ..
لقد حدثت المعجزة

واستحال السم في لحظة من اللحظات التي تهزأ فيها الطبيعة بكل معارف البشر - استحال الى ترياق . !
واخذت المريضة تنقه دون حاجة الى تكرار التجربة القاسية من جديد

واستعادت المحتضرة عافيتها في شهر سافرت بعده في صحبة ابها الى لبنان

ونال التسامح والقلب النقي مكانهما في النهاية ، فلم تصد دعاية « القرع المسلوق » تنفع في صرف مريض واحد عن باب الدكتور ع . الذي انتصرت على يده عقيسة الفلاح في تجربة المجرب وفضلها على طب الطيب !!

في المقدمة دائماً.



تصدیقاً منصف کل شہر